الفصل السادس

نظرة عامة — الحكومة — السياسة — الإدارة
— الجيش — الحياة الاجتماعية

وفى غضون السنوات العشر التى قضاها النبى (صلى الله عليه وسلم) فى المدينة ، حذت جموع القبائل المتنافسة والأفخاذ المتنازعة تتوحد بسرعة مدهشة . وتؤلف معا تحدوه فكرة واحدة سامية . ولسوف يبقى هذا العمل الذى تم فى تلك الفترة القصيرة خالداً أبد الدهر يذكره التاريخ فى عداد أعظم الأعمال شأنا وأبعدها خطراً .

ففى عهد أبى بكر حاولت تلك القبائل التى لانت قناتها أن تعود سيرتها الأولى فباءت بالفشل ، وإن جاز لنا أن نشبه تلك التطورات التى وقعت بعد ذلك فإنا نشبهها بفيضان نهر طفحت مياهه وطغت سيوله فى بادئ الأمر . فهاج وماج وخرب ودمر ، ولكن ما طال الزمن حتى هبط منسوبه وعاد إلى مستواه فخصبت الأرض وأينع الزرع . كذلك كان شأن العرب بعد الإسلام إذ حفزهم العداء العنصرى والاضطهادات التى كانوا يلاقونها من الأمم المجاورة فانساحوا فى الأرض وأثروا تأثيرهم المعروف .

كذلك طرأ تغيير هام على الشعب العربى فى خلال الثلاثين سنة التى عاشت فيها الجمهورية ؛ إذ لم تكن حياة العرب الاجتماعية عندئذ قد استقرت نظمها ولكنهم شرعوا منذ ذلك الحين يكونون لهم ذوقا ساعدهم فيما بعد على ترقية تلك الحياة بقدر ما أدى إلى انحطاطها . فشيدت المبانى الجميلة الفخمة ، وازدانت بها المدن الكبرى كما أصبحت الحياة محفوفة بالترف والفخامة ، وأطلق على العجم والأتراك والروم الذين اعتنقوا الإسلام اسم « الموالى » عقب انتسابهم إلى الأسر

والأخاذ العربيـة . ومع أن جميع العرب كانت تسودهم فكرة دينية مركزية واحدة إلا أن انصهارهم فى أمة واحدة متناسقة لم يتم قط . ومن هذا نرى دولة المسلمين فى آخر عهد الجمهورية تنشطر إلى قسمين كما كان الشأن فى مكة قبل عهد الرسول ، فأخذ القسم الواحد يدين بالولاء لآل البيت « بنى هاشم » ؛ بينما أخذ القسم الآخر يميل إلى « الأمويين » . ومع أن مكيدة « عمرو بن العاص » أدت إلى نكث العهد الذى لا سبيل إلى إصلاحه ، وأثارت الحزازات الدفينة بين الحميريين والمضريين ؛ إلا أنه لم تكن قد نشأت بعد تلك الطوائف والنحل الدينية ؛ حتى أن الخوارج أنفسهم لم يختلفوا فى الأصل إلا على مسألة البيعة رافضين الاعتراف بكل خليفة بعد « عمر بن الخطاب » .

الحكومة

كان الخليفة الذى يعتبر رأس الحكومة الأعلى يساعده فى تصريف مهام الدولة مجلس من الشيوخ يتألف عادة من الصحابة الأولين ، وكانوا يعقدون اجتماعاتهم فى الجامع الكبير يساعدهم على الأغلب جمع من الأشراف ورؤساء البدو الذين كان يتفق وجودهم فى المدينة ؛ كذلك كان الخليفة يولى كثيراً من الصحابة أعمالا خاصة فولى « عمر بن الخطاب » القضاء وتوزيع الصدقة كما أسند إلى « على بن أبى طالب » — بوصف كونه عالما — تحرير الرسائل والإشراف على أسرى الحرب وشؤونهم ، وولى آخر أمر النفقة على الجنود . وعلى الجملة كانت تبذل أقصى العناية فى كل صغيرة وكبيرة ولا يبرم شىء إلا بعد أن يؤخذ رأى مجلس الشورى فيه .

السياسة

وفى غضون الثلاثين سنة الأولى تأثرت سياسة الدولة بأخلاق « عمر » على وجه أخص سواء أكان ذلك فى حياته أم بعد مماته ؛ إذ كان هدفه الرئيسى هو توحيد شبه الجزيرة العربية وصهر القبائل فى جامعة عربية واحدة . ولما اضطرته الظروف أن يقلل من أعمال الغزو أوصى بأن يتمسك العرب فى أوطانهم الجديدة بعنصريتهم ، وحظر عليهم الاختلاط بأهل البلاد الأصليين ، ولو أمد الله فى

عمره لاستطاع بمتانة خلقه أن يصهر العرب و يجعلهم أمة أكثر اتحاداً ولحال دون وقوع الحروب الداخلية الهدامة التى أدت إلى خراب دولة المسلمين[١]. وثمة مناح أخرى من سياسته خليقة بأن توجه إليها اهتمامنا الخاص وأولاها إجلاء جميع العناصر المعادية عن شبه الجزيرة لكى تخلو للعرب وحدهم[٢] ، وثانيها عدم التطرف فى الفتح ، وقد استطاع بثاقب فكره و بعد نظره وهى ميزة كانت تنقص خلفاء العصور المتأخرة أن يدرك أن توطيد دعائم الإمبراطورية وترقيتها ماديا إنما يتوقفان على رفاهية طبقة الفلاحين من سكان البلاد الأصليين . وتحقيقا لهذه الغاية منع بيع العقار والأرض الزراعيـة فى الأمصار المحتلة ، كما سن قانونا يحظر فيه على العرب امتلاك الأراضى والضياع .

وعلى هذا أصبح الفلاح وصاحب الأرض محميين حماية مزدوجة من نزع الملكية ، ولعل تمييز الجنس العربى وتفضيله على الشعوب والطوائف الأخرى كان المحرض له على سن تلك القوانين التى لم يكن التاريخ يجهلها سواء أكان فى العصور القديمة أم الحديثة ، غير أن تلك الميزة لم تقتصر على العنصر العربى وحده إذ أن الفرق فى اللون والجنس والعنصر لم يعد حائلا دون المساواة والإخاء كذلك أصبح اعتناق الإسلام فى عهد « عمر » أو انتساب غير العربى إلى عشيرة عربية كافيا لرفعه إلى مستوى العربى الأصيل .

وقد بقيت هذه السياسة على الأقل معمولاً بها فى عهود جميع الخلفاء فأصبح كثير من الأسر الأعجمية موالى الأسر أو القبائل العربية من غير أن تغير دينها ، كما أخـذ كثير من الأسر المسيحية فى الشام ومصر والبربر ينتسبون إلى قبائل عربية أصيلة ؛ و بطبيعة الحال كان معتنقو الدين الجديد يمنحون امتيازات خاصة

---

(١) يعتقد كاتب أوربى مشهور أن الفتن الداخلية والخصومات القبلية هى سبب إنقاذ أوربا وخلاصها من غزو المسلمين .

(٢) كانت تتبع مثل تلك السياسة فى روسيا القيصرية .

كما يمنح أمثالهم فى الممالك الأخرى والطوائف غير الإسلامية مما ساعد على إغراء تلك الفئات بنبذ دينها القديم .

ولما كانت قواعد الإسلام ومبادئه تميل إلى الدمقراطية ذات المسحة الاشتراكية فقد أصبح الناس جميعاً غنيهم وفقيرهم متساوين أمام الله ، كذلك كان الحكام والولاة يعتبرون خلفاءه على الأرض لحمايتهم من الاستبداد والظلم . أما إيرادات الدولة فلم تكن تصرف لمنفعه الخليفة ولا لإثرائه إنما كانت تستخدم لخير المسلمين جميعاً كما كانت الزكاة تجمع من الأغنياء لتعطى صدقة للفقراء .

وفى صدر الإسلام لم يكن يخشى على بيت المال من غاصب أو ناهب ؛ كذلك لم تمسك السجلات لضبطه إذ كان يوزع إما على الفقراء و إما على الجنود المحاربين ، كما كانت الغنائم توزع على السواء الصغير منهم والكبير ، الحر والعبد ، الذكر والأنثى .

ولما كثرت الإيرادات وتعددت مصادر الفىء رؤى استبدال هذا التقسيم برواتب معينة ، وخصصت العطايا من الإيرادات العامة لكل فرد من المسلمين الذين لم يقتصر ذلك عليهم وحدهم بل كان لأهل الذمة منه نصيب كبير ؛ كذلك لم تفرد للخليفة رواتب ملكية أو مصروفات استثنائية . ولم يفكر النبى (صلى الله عليه وسلم) ولا خليفته « عمر » بتقسيم الضياع إذ كان ذلك يؤدى بطبيعة الحال إلى إفقار الأسر ، ومن أجل ذلك منع تقسيم أراضى المدينة .

ومما يجب ذكره بهذا الصدد أن الأراضى الأميرية فى البلاد المحتلة لم توزع على الجنود بل بقيت ملكا للدولة على أن تقسم إيراداتها بعد سداد المصروفات على مستحقيها . ولسوء الطالع انعكست فى عهد عثمان الأوجه الأساسية لسياسة سلفه كما أنه لم يكتف بعزل عمال عمر فحسب ؛ بل أخذ يوزع الوظائف والأراضى بين أشياعه وأتباعه كما أقطع معاوية الضياع الأميرية فى الشام وجزءاً غير قليل من أرض الجزيرة . أما السواد الذى كان « عمر » قد أبقاه للصرف على مرافق الدولة

فيقال إن عثمان وهبه لأحد أقربائه ؛ كذلك كان بيت المال فى عهدى أبى بكر وعمر ملكا للمسلمين فوزعه عثمان بين أهله ومحاسيبه ليمكنهم من الكفاح فى سبيل إعادة السلطة لأنفسهم ، كما ألغى الامتيازات التى كان الذميون قد اكتسبوها فى العهد السابق ، وسن قوانين مجحفة تتعارض وقوانين سلفيه على خط مستقيم ؛ فأباح بيع الأراضى وأنشأ الإقطاعيات العسكرية . وقد كانت إدارة « على » تفت فى ساعدها الحروب الداخلية ؛ ولولا ذلك لأصلح مساوئ الإدارة السابقة ولكنه مع ذلك تمكن من عزل معظم العمال وطبق سياسة « عمر » أينما ساد سلطانه ، وأسس دائرة لحفظ سجلات الخلافة ومكتباً باسم « ديوان الحاجب » وأعاد تنظيم الشرطة وأطلق على رئيسها اسم « صاحب الشرطة » كما وضع أنظمة خاصة لأفرادها .

الإدارة

لما سقطت مكة ودانت الجزيرة بالطاعة للمسلمين ولى النبى (صلى الله عليه وسلم) العمال على المدن الكبرى والأمصار وأطلق عليهم اسم «الأمراء» . ويعتبر « عمر » المؤسس الحقيقى للإدارة السياسية فى الإسلام ، فقسم البلاد المحتلة إلى إمارات وولايات لكى يتفرغ أمراؤها وولاتها إلى ترقية مصادرها فاعتبرت الأهواز والبحرين ولاية واحدة ، وسجستان ومكران وكرمان ولاية أخرى ، وبقيت طبرستان وخراسان ولايتين منفردتين ، وولى ثلاثة أمراء على جنوبى فارس ، كما نصب أميران على العراق أحدهما فى الكوفة والآخر فى البصرة ، كذلك اتبع هذا النمط فى الشام فاتخذ أمير الولايات الشمالية قاعدته فى حمص كما اتخذ والى القسم الجنوبى مدينة دمشق مقرا لحكمه ، وأسندت ولاية فلسطين إلى أمير مستقل ، وأسست فى أفريقيا ثلاث إمارات واحدة فى مصر العليا والأخرى فى مصر السفلى والثالثة فى الولايات الواقعة فيما وراء صحراء ليبيا ؛ وقسمت جزيرة العرب إلى خمس ولايات وكان يطلق على حكام الولايات الصغرى اسم الوالى أو النائب . وكان الحاكم فى معظم الولايات بحكم منصبه يصلى

بالمسلمين ويلقى خطبة الجمعة التى كانت تعتبر فى الغالب بياناً سياسيا . وعين « عمر » لفلسطين ودمشق وحمص وقنسرين قضاة للإمامة فى الصلاة والنظر فى الأحكام ، وأنشأ إدارة مالية باسم «الديوان» لتنظيم جميع الإيرادات وصرفها ، وكان القسم الأعظم منها يستنفد فى سد النفقات الإدارية والحربيـة ثم يوزع ماتبقى على أفراد المسلمين العرب منهم والذميين ؛ ولهذا أمسكت سجلات خاصة فى الديوان لتسجيل أسمـاء جميع المستحقين . وكان الأمير هو الرئيس الأعلى فى ولايته ، وإليه وحده يرجع الفصل فى الأمور العسكرية والمدنية .

أما الأمور المالية والإدارية فكان يدير شؤونها موظفون قديرون يعينون خصيصاً لهذه الغاية ، كذلك كانت الحكومة توجه أقصى جهودها لتحسين حالة الفلاح وترقية الصناعة فمسحت الأرض حقلا حقلا ، ووضعت الجباية فى مصر والشام والجزيرة وجنوبى فارس على أسس ثابتة متناسقه . ولو ألقينا نظرة عجلى على سجل المسح لألفينا مقـدار العناية التى كانت الحكومة تبذلها فى مسح الأرض مع ذكر موجز لتربتها وحاصلاتها وهوية أصحابهـا وما إلى ذلك ؛ كما شيدت شبكة واسعة النطاق من الترع والمصارف فى بابل ، وقويت السداد على ضـفاف دجلة والفرات تحت إشراف موظفين فنيين . ولا يفوتنا أن نذكر هنا أن « عمر » خفض ضريبة الزرع وأمر بحفر القناة القديمة الممتدة من النيل إلى البحر الأحمر تسهيلا للمواصلات بين مصر وبين جزيرة العرب . وقد تم حفرها فعلا فى أقل من سـنة . ويقال إنه حينما أبحرت السفن النيلية إلى ينبع وجدة مشحونة بالمحاصيل المصرية هبطت أسـعار الحنطة فى أسواق مكة والمدينة حتى كادت تبلغ أسعارها الأولية .

القضاة

أما المنازعات والخصومات فقد كان يفصل فيها قضاة مدنيون يعينون رأساً من قبل الخليفـة ؛ وكان « عمر » أول من عين الرواتب للقضاة وفصل دوائرهم عن الدوائر التنفيذية وأطلق عليهم اسم « حكام الشرع » . وهكذا كانت الإدارة

الإسلامية منذ أوائل عهدها تعترف قولا وعملا بنظرية الفصل بين القضاء والسلطة التنفيذية ، وكان القضاة مستقلين فى أحكامهم والكل فى نظرهم سواء وفوق ذلك كان الخلفاء أنفسهم يتحينون الفرص ليبرهنوا على خضوعهم لسلطان القانون كما كان الأهلون يقومون فيما بينهم بواجبات الحراسة فى مبدإ الأمر ، فأوجد « عمر » العسس والخفر . و يمكن أن يقال إن نظام الشرطة لم يؤسس إلا فى عهد « على بن أبى طالب » الذى أطلق على رئيسهم اسم « صاحب الشرطة » ، كذلك أشار باستعمال التاريخ الهجرى ، وشيد الجوامع وفتح المدارس فى أنحاء الإمبراطورية العربية وخصص الأوقاف للصرف عليها .

أما الجباية فكانت على أنواع ثلاثة وهى :

(١) الأعشار أو الزكاة وتؤخذ من أغنياء المسلمين وتفرق فى الجيش والموظفين المستخدمين فى جمعها والفقراء من المسلمين .

(٢) ضريبة الأرض التى تفرض على الذميين وكانت تسمى بالخراج .

(٣) ضريبة الأعناق أو الجزية وكانت معروفة عند الروم بنفس الاسم ، وشائعة فى حكم الساسانيين فى الإمبراطورية الفارسية . فإذا كان المسلمون قد أدخلوا هذه الضريبة فى مصر والشام والعراق وفارس فإنما يكونون قد اتبعوا سابقة كانت الأمم الأخرى تعمل بها ؛ ولكن المسلمين وضعوا لها نظاماً عادلا باعتبار درجات الناس ومقدرتهم ؛ ومع ذلك فقد نصوا على استثناء بعض المدن والولايات والقبائل من هذه الأعباء بينما فرضوها على البعض الآخر ، وقد كان يشترط فى جمعها ألا تكون مصدر ضيق لدافعيها وكان اليهود والمسيحيون الذين يطلق عليهم اسم « أهل الكتاب » يعاملون بكل عدل وإنصاف .

الجيش

كان الجيش العربى يتألف من جنود البدو المرتزقة ومن متطوعى المدينة والطائف و بعض المدن الأخرى ؛ وكانت رواتبهم تدفع فى بادئ الأمر من الأعشار ثم أمست تدفع من الأعشار والجزية معاً . وكان الخليفة يعين القائد العام

الذى كان ينتخب بنفسه الضباط و يؤم المصلين ؛ و إذا اتفق أن وجـدت عدة فرق فى أية ولاية ، فقد كان الخليفة يعين بصراحة اسم القائد الذى يصلى بالجنود الأمر الذى كان يقرر مركزه كرئيس لبقية القواد .

ونلاحظ أن « عمر » فى أواخر عهده أخذ يرشح صغار الضباط كالعرفاء ومن إليهم . أما جزاء الإخلال بالنظـام أو التأخر عن الانخراط فى الجندية فـكان عبارة عن تمزيق العمامة وهو عقاب كان يعتبره الجندى فى تلك الأيام عاراً لا يمحى .

وكان الجيش يتألف من الفرسان والمشاة ، أما الأولون فـكانوا يتسلحون بالدروع والسهام والنشاب ؛ كما كان رماة السهام يؤلفون العنصر الغالب فى المشاة الذين كانوا يتألفون من ثلاثة صفوف متراصة يتقدمهم عادة حاملو الرماح لصـد هجمات فرسان العـدو ؛ ثم يليهم حاملو السهام . أما الفرسان فكانوا يقفون على الميمنة والميسرة ؛ كذلك كانت المعارك تبدأ بالمناهدة أو المبارزة بين الأفراد . ولا يخفى أن تفوق العرب كان يعزا على الأغلب إلى سرعة الانتقال والمقدرة على تحمل شظف العيش وهى صفات إن اجتمعت معها ميزة الحماسة جعلت من أصحابها جيشاً لا يقهر . وقد كان العرب يجهزون دائماً بأحسن الأجهزة و يركبون الجمال إذا ما أرادوا قطع المسافات الشاسعة . أما معسكراتهم فكانت فى بادئ الأمر عبارة عن خصاص مصنوعة من الجريد ولـكن ما انقضت مدة وجيزة حتى أمر الخليفة بأن تشـيد محطات عسكرية دائمة فى البصرة والـكوفة فى العراق ، والفسطاط فى مصر ، والقيروان فى أفريقيا ، والمنصورة فى السـند وهلم جرا . كذلك أقيمت حاميات قوية فى المـدن الأخرى كحمص وغزة والرها وأصفهان والإسكندرية لصد هجمات العدو الفجائية .

وكان أفراد الجيش يلبسون الدروع المصنوعة من السـلاسل و يضعون على رؤوسهم الخوذ الفولاذية التى كانت تزين على الأغلب بريش النسور . أما المشاة

فكانوا يلبسون قمصاناً محبوكة على أجسامهم تنزل إلى ما تحت الركبة فوق السراويل وينتعلون الأحذية ؛ وكانوا جميعاً يسيرون إلى ميدان القتال وهم يرتلون الآيات القرآنية الكريمة ويكبرون عند الهجوم ؛ كذلك كانوا يستعملون الطبول ويحملون معهم نساءهم وأولادهم ، كما شيدت لهم أماكن خاصة فى المدن والمحطات العسكرية .

وكان الفساد ممنوعاً منعاً باتاً ، كذلك كان شارب الخمر يعاقب بثمانين جلدة ولم يكن ليسمح قط للجندى الذى كان يخدم خارج بلاده بالتغيب عن أسرته أكثر من أربعة أشهر دفعة واحدة ، ولا يفوتنا أن نقول إن « عمر » كان أول من وضع نظام سجلات الجند وأسس الحصون على الحدود وعين قواد السير .

الحياة الاجتماعية

وفى أوائل تأسيس تلك الدولة لم يكن قد وجد بعد طراز معين لفن العمارة العربية . فكان المرء يشاهد فى مكة منشآت قليلة ذات ظواهر معمارية بدائية كالكعبة . وكان الأغنياء يبنون منازلهم إما من الحجر أو الآجر كما كانت تشيد جل منازل المدينة من الآجر فقط ، حتى أن الجوامع الرئيسية فى المدينة كانت متواضعة البنيان مشيدة من آجر تكسوه طبقة من الجص ، وكانت معظم المنازل ذات طابق واحد له فضاء يتوسطه بئر . غير أننا نشاهد فى نهاية عهد ثانى الخلفاء الراشدين أن المعماريين الأجانب أخذوا يؤمون عاصمة الإسلام ويمتهنون حرفتهم فأدخلوا على الفن المعمارى فى تلك البلاد رونقاً جديداً كما شرع أثرياء مكة والمدينة يشيدون منازلهم بالحجارة والمرمر .

ويقال إن القصر الذى شيده « عثمان بن عفان » كان فخماً رحباً فاخراً كذلك هدم الجامع الكبير وأعيد بناؤه وأقيمت له جدران ودعائم من الحجر والمرمر . وقد ذكر المسعودى أنه فى أيام « عثمان » ابتنى الصحابة لأنفسهم الدور الفخمة ، وبنى الزبير بن العوام داره بالبصرة وكانت لا تزال قائمة فى سنة ٣٥٢ هـ ؛ كما بنى عدة دور بالفسطاط والكوفة والإسكندرية ، كذلك شيد طلحة داراً

بالكوفة وأخرى فى المدينة بالجص والآجر والساج . وهذه المنازل وحدائقها كانت لا تزال محتفظة بجدتها ورونقها فى أيام المسعودى . و بعد أن يسوق لنا هذا المؤرخ المشهور الأدلة على فخامة القصور يعلق عليها بقوله : « ما أعظم الفرق بين هذا البذخ و بين بساطة الحياة فى عهد عمر بن الخطاب » .

وفيما كان أهل مكة منصرفين إلى التجارة كان أهل المدينة يسعون فى تحصيل معاشهم بالزراعة الأمر الذى كان يزيد فى حدة المنافسة بين البلدين فيعيد إلى أذهاننا قصة أثينا واسبرطة . وقد كان أهل مكة يأخذون من لذائذ الحياة بنصيب كبير فيشربون الخمر و يقامرون فى حين كان أهل المدينة وعلى الأخص بعد النبوة يقتدون بزعمائهم ، ويزاولون ضروب التقشف والتقوى ؛ ولكن لم تكد مكة تؤول إلى أيدى المسلمين حتى تخلق أهلها المرحون بالأخلاق الإسلامية ، وتمسكوا بأهداب الفضيلة . وظل هذا شأنهم فى عهدى « أبى بكر » و « عمر ابن الخطاب » حتى إذا ما تولى عثمان بن عفان الخلافة استأنف كثير من شبابهم حياة القصف واللهو وأصبح تشبيهم بالنساء أمراً مألوفاً . كذلك تأثرت مدينة دمشق فى زمن خلافة الأمويين بلهو مكة أسوأ تأثير ؛ غير أن أهل المدينة مع ذلك أخذوا أنفسهم بالشدة فكانت قاعات المحاضرات تزخر بالطلاب والطالبات المتحمسين للاستماع إلى خطب الخلفاء . ولم تكن الموسيقى — وهى الغناء والضرب على القيثارة والناى — قد حرمت بعد فكانت أكبر سلوى لهم بعد الفراغ من أشغالهم اليومية .

وكانت نساء المدينة مشهورات بجمال الصوت ؛ و يقول لنا المؤرخون : « إن عمر بن الخطاب — وهو تلك الشخصية الصارمة — كثيراً ما كان يقف أثناء جولاته الليلية ليصغى إلى الموسيقى والغناء » .

وكانت منازل سراة القوم تفرش بالبسط واللبد إذ لم تكن الكراسى والمناضد قد عرفت بعد ، وكانت ثمة أجنحة خاصة بالنساء كما كان الشأن فى إنجلترا فى حكم

الانكلوسكسون والنورمنديين الأولين ، وكانت تلك الأجنحة تشبه فى رياشها ونظامها الأجنحة المخصصة للرجال . أما الطعام فكان يقدم فى صحاف توضع على جلود مغطاة بالقماش ؛ وكانوا يغسلون أيديهم قبل تناول الطعام و بعده كما كان الشأن فى أوروبا فى العصور الوسطى . ولم تكن السكاكين ولا الأشواك معروفة فكانوا لذلك يأكلون بأصابعهم كما كان يفعل أهل أوروبا إلى زمن متأخر جدا .

وكانت ملابس البدوى تتألف من قميص طويل يصل إلى الركبة وحزام من الجلد يتمنطق به حول وسطه ثم يتشح بعباءة فضفاضة مصنوعة من الوبر ، وكانت السراويل تلبس مع القمصان فى أثناء الحروب أو عند ركوب الخيل ، وكان لبس الرأس عبارة عن الكوفية والعقال .

أما رجال الطبقة العليا فى المدن وشيوخ القبائل ، فكانوا يلبسون القميص المرسل إلى الركبة فوق السروال و يرتدون فوقه رداء فضفاضاً يصل إلى الكعب كذلك كانوا يتشحون بالجبة أو العباءة . أما القباء المأخوذ عن البيزنطيين فلم يعم إلا فى أواخر عهد الجمهورية وكان على نوعين: نوع ذو أردان واسعة ، والنوع الآخر له أردان ضيقة لا يزال أشراف فارس على الأغلب يلبسونه حتى اليوم . كذلك كانوا يلبسون العمامة التى كانت تختلف فى حجمها باختلاف السن والجاه والدرجة العلمية ، كما كانوا يضعون فوقها طيلساناً يسبلون مطارفه فيحمى الرقبة من حرارة الشمس . وكانوا أيضاً ينتعلون الصندل أو الحذاء .

أما النساء فكان يتألف لباسهن من سروال واسع ودرع مفتوحة عند الرقبة و يلبسن فوقه وعلى الأخص فى الشتاء سترة ضيقة ، بيدأن لباسهن الرئيسى كان عبارة عن رداء طويل كن يرتدين فوقه عباءة .

أما لباس الرأس فكان عبارة عن منديل يلففنه على الجبهة ؛ ولا يخفى أن النساء فى زمن الجاهلية كن يلبسن قميصاً أو سترة مفتوحة من الصدر ، فأوصى النبى (صلى الله عليه وسلم) باستعمال العباءة الطويلة عند خروجهن من بيوتهن ،

وقد تطورت تلك العباءة فى العهد العباسى الأخير حتى أصبحت ذلك اللحف الذى نشاهد النساء يلتففن به فى البلاد الإسلامية .

وكانت العربيات وما زلن سافرات . أما الحجاب المستعمل الآن فى معظم البلاد الإسلامية فلم يستعمل إلا بعد زوال الدولة العباسية ، وكانت النساء فى عهد الجمهورية يتمتعن بقسط وافر من الحرية كما كن يحضرن خطب الخلفاء والمحاضرات التى كان يلقيها على بن أبى طالب وابن العباس ؛ ولا يفوتنا أن نذكر هنا أن الاختلاط بالدولة البيزنطية والفارسية لم يكن قد أثر بعد على النخوة العربية .

وكان العرب قبل الإسلام كاليهود القدماء يعددون الزوجات ، وهذه العادة ليست إلا نتيجة طبيعية للحروب والغزوات التى كان يذهب ضحيتها عدد كبير من الرجال ؛ ولولا هذا الجواز لهلك الكثيرات من النساء جوعا . وقد حرم النبى بطريقة غير مباشرة تعدد الزوجات بأن اشترط العدالة بينهن ؛ ومع ذلك فقد جعله ملائما للطبقات الاجتماعية ، وقد كانت الحياة العائلية مشيخية فى عهد الجمهورية ؛ وقد حرم الإسلام شراء الرقيق وبيعه ولم يسمح إلا بإبقاء أسرى الحرب حتى يفتدوا أنفسهم على شرط أن يعاملوا على قدم المساواة مع أفراد العائلة .